بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: **(وَالَّذِينَ اهتَدَوا زادَهُم هُدًى وَآتاهُم تَقواهُم)** [محمد: ١٧]

زادهم هدى: بفعل الطاعة، وآتاهم تقواهم: بترك المعصية

فيها من المسائل:

(1: أن الحسنة تنادي أختها،

2: والتنبيه على التدرج في تغيير حال المدعوين،

3: وإكراه المرء نفسه على شيء يعلم أنه يستطيع المداومة عليه من الخير،

4: وأن الداعي قد لا يبارَك له في دعوته إلا إن حمد الله بعد ظنه أن دعوته لم تؤت ثمارها)

[الحسنة تنادي أختها]

- قال تعالى: **(إِنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الفَحشاءِ وَالمُنكَرِ)** [العنكبوت: ٤٥]
- وروى أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن فلانا يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق؟ قال: «إنه سينهاه ما يقول»)** [انظر الصحيحة ٣٤٨٢]

[التنبيه على التدرج في تغيير حال المدعوين]

- وعند [أبي داود ٣٠٢٥] عن وهب قال: **(سألت جابرا عن شأن ثقيف إذ بايعت؟ قال: اشترطت على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة عليها ولا جهاد، وأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقول: «سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا»)**.
- وقال الألباني في [الثمر المستطاب ١\٥١]: **(ويجوز لولاة الأمر أن يقبلوا إسلام الكافر ولو لم يرض بإقامة كل الصلوات الخمس: نصر بن عاصم الليثي عن رجل منهم: أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم على أنه لا يصلي إلا صلاتين فقبل ذلك منه. حم (٥/ ٢٤-٢٥ و ٣٦٣) من طريق شعبة عن قتادة عنه، وهذا سند صحيح على شرط مسلم. وفيه أحاديث..)** انتهى،
- ومثله حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه الذي رواه النسائي:**(بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أخر إلا قائما)**، قال في جامع العلوم والحكم:(وأخذ الإمام أحمد بهذه الأحاديث، وقال:

يصح الإسلام على الشرط الفاسد، ثم يلزم بشرائع الإسلام كلها، واستدل أيضا بأن حكيم بن حزام قال: «بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما» . قال أحمد: معناه أن يسجد من غير ركوع)، وقيل في شرحه غير ذلك، ومن هذا القبيل: المؤلفة قلوبهم، إذ كانوا يسلمون للدنيا ثم يقوى إيمانهم، ومن هذا القبيل أيضاً كان مهر أم سليم رضي الله عنها: إسلام أبي طلحة رضي الله عنه.

وقال ابن أبي شيبة: ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البَختري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: **(القلوب أربعة:**

١: قلب مُصفَح، فذاك قلب المنافق،

٢: وقلب أغلف، فذاك قلب الكافر،

٣: وقلب أجرد كأن فيه سراجاً يزهر، فذاك قلب المؤمن،

٤: وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثله مثل قرحة يمدها قيح ودم، ومثله مثل شجرة يسقيها ماء خبيث وماء طيب، فأي ماء غلب عليها غلب).انتهى، فتبين أن واجب الداعي: تكثير تدفق الماء الطيب إلى قلب المدعو حتى يغلب عليه الطِيب ويطيب قلبه -وإن بقي شيء من الماء الخبيث-.

فائدة: في [لسان العرب]: **(المُصفَح الذي له وجهان: يلقى أهل الكفر بوجه وأهل الإيمان بوجه... وجعل حذيفة قلب المنافق الذي يأتي الكفار بوجه وأهل الإيمان بوجهٍ آخر ذا وجهين، قال الأزهري: وقال شمر فيما قرأت بخطه: القلب المصفح: زعم خالد أنه المضجع الذي فيه غل، الذي ليس بخالص الدين، وقال ابن بزرج: المصفح: المقلوب، يقال: قلبت السيف وأصفحته وصابيته..)** انتهى.

تنبيه: ما في المسند عن بشير بن الخصاصية رضي الله عنه قال: **(أتيت النبي صلى الله عليه وسلم لأبايعه، فاشترط عليَّ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة وأن أؤدي الزكاة وأن أحج حجة الإسلام وأن أصوم شهر رمضان وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت: يا رسول الله أما اثنتين فو الله لا أطيقهما: الجهاد والصدقة؛ فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت تلك جشمت نفسي وكرهت الموت، والصدقة: فوالله ما لي إلا غُنَيمةٌ وعشر ذود هنَّ رِسْلُ أهلي وحمولتهن، قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حركها ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذاً؟» قلت: يا رسول الله أبايعك!، فبايعته عليهن كلهن)** [ضعيف، وقد ضعفه

الألباني في تحقيقه لكتاب: (كلمة الإخلاص لابن رجب)]، ولو صحَّ فيُستفاد منه التفريق في التدرج من شخص إلى آخر.

[إكراه المرء نفسه على شيء يعلم أنه يستطيع المداومة عليه من الخير]

- «**إسباغ الوضوء على المكاره..**» وقال ابن رواحة رضي الله عنه لنفسه كما عند ابن ماجه: (**ألا أراك تكرهين الجنَّة ... أحلف بالله لتنزلِنَّه... طائعة أو لتكرهِنَّه**)
- وروى أحمد عن أنس رضي الله عنه: (**أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل: «أسلم»، قال: أجدني كارهاً، قال: «أسلم وإن كنت كارهاً»**) [انظر الصحيحة ١٤٥٤]، فهكذا يُقال لمن كره شيئاً مما أوجبه الله عليه: "افعله وإن كنت كارهاً"، كقوله تعالى: (**كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتالُ وَهُوَ كُرهٌ لَكُم**) [البقرة: ٢١٦]، وكقوله: **{كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون}.**

وأيضاً يُقال لمن كان يعلم أنه يستطيع إكراه نفسه على شيء من الخير الذي يستطيع المداومة عليه: "افعل هذا الخير ولو كنت كارهاً"، ولا يظنن المرء بنفسه أنه لا يستطيع فعل الخير لمجرد استثقاله إياه في باديء الأمر، بل الإنسان مجبول على التكيف مع الحالة التي هو فيها، وقال ابن دقيق العيد في الإحكام ١/١٩٩: (**وفي تقديم السنن على الفرائض وتأخيرها عنها معنى لطيف مناسب، أما في التقديم: فلأن الإنسان يشتغل بأمور الدنيا وأسبابها فتتكيف النفس من ذلك بحالة بعيدة عن حضور القلب في العبادة والخشوع فيها -الذي هو روحها- فإذا قُدِّمَت السنن على الفريضة تأنست النفس بالعبادة وتكيف بحالة تقرب من الخشوع، فيدخل في الفرائض على حالة حسنة لم تكن تحصل له لو لم تقدم السنة، فإن النفس مجبولة على التكيف بما هي فيه، لا سيما إذا كثر أو طال، وورود الحالة المنافية لما قبلها قد يمحو أثر الحالة السابقة أو يضعفه..**) انتهى،

وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله:

(**آفة المتعلم الملل وقلة صبره على الدرس والنظر، الملول لا يكون حافظًا، وإنما يحفظ من داوم درسه وكد فكره وسهر ليله، لا من رفه نفسه.**) انتهى من جزء فيه حكايات عن الشافعي وغيره للآجري.

وسبب تقييد الخير الذي يُكرِه المرء نفسه عليه بأنه الخير الذي يعلم أنه يستطيع المداومة عليه هو ما جاء في الحديث: «**اكلفوا من العمل ما تُطيقون**» وما جاء أن أحب العمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما داوم عليه صاحبه، ولئلَّا يصير العامل الذي أكره نفسه على العمل كالذي قال فيه رسول الله صلى الله

عليه وسلم: «**لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل ثم تركه**»، وقد قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، وروي أنه قال له كما عند ابن ماجه: «**إني أخشى أن يطول عليك الزمان وأن تمل**»، وقد قال سلمان رضي الله عنه: **(إياك والحقحقة وعليك بالقصد وداوم)** قال المنذري كما في الترغيب [١/٢٨٧]:**(الحقحقة:.. هو أشد السير، وقيل: هو أن يجتهد في السير ويلح فيه حتى تعطب راحلته أو تقف، وقيل غير ذلك)** انتهى.

وقال الطبري في [تهذيب الآثار ١\٣٢٦]: **(الذي ينبغي لكل امرئ من أهل الإسلام أن يُلزم نفسه من نفل أعمال الخير ما كان الأغلب عنده أن نفسه له مطيقة، وهي على الإدمان عليه قادرة، وما يخف عليها احتماله ولا يثقل عليها تكلفه)** انتهى، وقال ابن حجر في الفتح:**(فإذا خشي الملل لا ينبغي له أن يُكره نفسه)** انتهى،

وقد قال شيخ الإسلام في شرح العمدة ٤/٢٢٨ معللا عدم الإحرام قبل المواقيت:**(فإن في زيادة الإحرام على ما وجب تعريضا لأخطار الإحرام، من مواقعة المحظورات وملالة النفوس، فكان الأولى السلامة، كما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل قليل الطاعة قليل المعصية ورجل كثير الطاعة كثير المعصية، فقال: لا أعدل بالسلامة شيئا..)** انتهى.

ومن هذا الباب: الصبر على التدرج في طلب العلم، فمن لم يتدرج في طلب العلم يُقال له: **"إني أخشى أن يطول عليك الزمان وأن تمل"**، وعند [النسائي] عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: **(اتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف، فقال: «لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس»)** [صححه الوادعي في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين برقم ٩٣٣] وهو واضح الدلالة على مسألة التدرج في طلب العلم،

وفي [صحيح مسلم] **حدَّث عمرو بن عبسة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثٍ في أوقات النهي عن الصلاة وفي صفة الوضوء، فقال له أبو أمامة رضي الله عنه: (يا عمرو بن عبسة، انظر ما تقول! في مقامٍ واحدٍ يُعطى هذا الرجل؟!) فقال عمرو: (يا أبا أمامة، لقد كبرت سني ورقَّ عظمي واقترب أجلي، وما بي حاجةٌ أن أكذب على الله ولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً، حتى عدَّ سبع مرات، ما حدَّثت به أبداً، ولكني سمعتُه أكثر من ذلك)** وهذا أيضاً ظاهرٌ في مسألة التدرج في طلب العلم، ومما يفيد في مسألة التدرج أيضاً حديث: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه..**»

وقد قال ابن وهب: **(سمعت من ثلاثمائةٍ وسبعين شيخاً، فما رأيت أحداً أحفظ من عمرو بن الحارث، وذلك أنه كان قد جعل على نفسه يتحفظ كل يوم ثلاثة أحاديث..)** اهـ [من ترجمة عمرو بن الحارث في تهذيب الكمال]، فيُستفاد من هذا: أن العجلة في طلب العلم مذمومة، فالمطلوب هو الاستمرار في التعلم وأخذه كما أخذه العلماء، والبركة من الله، يوضح ذلك: أن قتادة قيل فيه: أحفظ أهل زمانه، فهو شديد الحفظ، ومع ذلك يقول كما في ترجمته من [تهذيب الكمال]: **(من طلب العلم جملة ذهب منه جملة، إنما كنا نطلب العلم حديثاً وحديثين)**، وبالجملة فقد قال تعالى: **{ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما}**.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**اكلفوا**» يحتوي معنى إكراه النفس على العمل، قال ابن حجر في [الفتح]: **(اكْلُفوا: بسكون الكاف وضم اللام أي: احملوا المشقة في ذلك، يقال: كَلُفت بكذا إذا ولعت به)** انتهى.
وفي [لسان العرب]: **(وفي الحديث: «اكلفوا من العمل ما تطيقون»، هو من كلفت بالأمر إذا أولعت به وأحببته، وفي الحديث: "عثمان كلف بأقاربه"؛ أي شديد الحب لهم، والكلف: الولوع بالشيء مع شغلِ قلبٍ ومشقةٍ.)** انتهى، وقال ابن حجر في الفتح شارحا حديث **(ففيهما فجاهد)**: **(ويؤخذ منه أن كل شيء يتعب النفس يسمى جهادا)** انتهى.

وفي [فيض القدير]: **(في خبر: (الخير عادة والشر لجاجة)، والعادة: مشقة من العود إلى الشيء مرة بعد أخرى حتى يسهل عليه فعل الخير والصلاح، والعاقل من جاهد نفسه، {والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا})** انتهى،
وقال في موطنٍ آخر شارحاً نفس الحديث: **(فعلى من لم يرزق قلبا سليما من الشر أن يروض نفسه على الخير والكف عن الشر ويُلزمها المداومة على ذلك، وإنما يؤتى العبد من الضجر والملال والعجلة)** انتهى، ويدل على هذا التفسير لهذا الحديث: ما عند عبد الرزاق عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفا:**(تعودوا الخير فإنما الخير بالعادة)**.

ومن هذا الباب: أن النفوس المؤمنة قد تخشى من الكلام في الجرح والتعديل، وقد تكره ذلك، كما قال محمد بن بشران السباك الجرجاني لأحمد بن حنبل: **(يا أبا عبد الله، إنه ليشتد علي أن أقول: فلان كذاب، وفلان ضعيف)** فهذه النفس آثرت السلامة وخشيت مغبة الولوج في باب الجرح والتعديل، لأن أعراض الناس حفرة من حفر النار وقف على شفيرها المحدثون والحكام -كما قال ابن دقيق العيد- ولكن مع ذلك

فلا بد من الكلام في الجرح والتعديل على طريقة العلماء -لا السفهاء- ليُحفظ الدين، فيكون الجرح والتعديل كالتلبينة التي قالت عنها عائشة رضي الله عنها:(**البغيض النافع**)، فلذا قال أحمد مجيبا الجرجاني آنف الذكر:(**إذا سكت أنت وسكت أنا فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم؟**).

ووجه دخول هذه المسألة في قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُم هُدًى**) [محمد: ١٧] يتَّضح بضمها إلى قوله تعالى: (**وَالَّذِينَ جاهَدوا فينا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنا**) [العنكبوت: ٦٩]؛ فمن جاهد نفسه وأكرهها على فعل الخير هداه الله إلى سُبُلِه، والمرء في الليل لا يَحُل عُقَد الشيطان عنه إلا بإكراهه نفسَه على ترك النوم وعلى ذكر الله أولاً، ثم الوضوء ثانياً، ثم الصلاة ثالثاً، فكلما أكره نفسه على طاعةٍ؛ انحلَّت عنه عقدة من عقد الشيطان.

ومن أمثلة المُكرِهين لأنفسهم على الطاعة: ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثةٌ يُحبهم الله عز وجل، ويضحك إليهم، ويستبشر بهم:**

١: الذي إذا انكشفت فئةٌ قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يُقتَل وإما أن ينصره الله ويكفيه، فيقول الله: انظروا إلى عبدي كيف صبر لي نفسه؟!

٢: والذي له امرأةٌ حسناء وفراشٌ لَيِّنٌ حَسَن فيقوم من الليل، فيقول: يذر شهوته، فيذكرني ويناجيني، ولو شاء رقد!

٣: والذي يكون في سفرٍ وكان معه رَكْبٌ فسهروا ونصبوا ثم هجعوا، فقام من السحر في سَرَّاءَ أو ضَرَّاء». [انظره في الصحيحة ٣٤٧٨]

وأخيراً: قال العلَّامة زيد المدخلي رحمه الله: (**الصبر الجميل الذي يُعتبر أجلَّ صفة من صفات الكمال، إذ به تُنال المطالب العالية، وتُحَلُّ المشاكل المستعصية، فما نجح الرسل الكرام والأنبياء العظام في دعوة أممهم إلا بالله ثم بالصبر، وما نال الشهداء مرتبة الشهادة وفضلها إلا بالله ثم بالصبر على منازلة الأقران في معارك القتال، وما ظفر العلماء بجمع العلوم وفهمها إلا بالله ثم بالصبر على سهر الليالي وشظف العيش، وما حصل ذوو الهمم العالية والمقاصد الشريفة على غاياتهم النبيلة ومطالبهم المرضيَّة إلا بالله ثم بالصبر على كل ما يُواجهونه في سبيل ذلك، مستشعرين معية الله لهم، كما قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصّابِرينَ)**). انتهى من [الأجوبة السديدة ص ٣٩]

تنبيه: ما تقدم من وجوب مجاهدة المرء نفسه حتى تتخلق بالخلق الفاضل لا ينافي ما رواه البخاري في الأدب المفرد عن عبد الله بن ربيعة قال: **كنا جلوسا عند عبد الله -أي ابن مسعود رضي الله عنه- فذكروا رجلا، فذكروا من خُلُقه، فقال عبد الله: أرأيتم لو قطعتم رأسه أكنتم تستطيعون أن تعيدوه؟ قالوا: لا، قال: فيده؟ قالوا: لا، قال: فرجله؟ قالوا: لا، قال: فإنكم لا تستطيعون أن تغيروا خُلُقه حتى تغيروا خَلقه! إن النطفة لتستقر في الرحم أربعين ليلة ثم تنحدر دما ثم تكون علقة ثم تكون مضغة ثم يبعث الله ملكا، فيكتب: رزقه وخلقه، وشقيا أو سعيدا.** انتهى، وذلك أن قول ابن مسعود رضي الله عنه إنما يستفاد منه أنكم لا تستطيعون تغيير خُلُقه إلا إن قدّر الله ذلك، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم:**(إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم)** وهذا القَدَر مخفي عنا، فلذا لا ندري هل تكون نصيحتنا لهذا الرجل سببا في تغيير خُلُقه أم لا، فلذا علينا نصحه، مع اعتقاد أن نصحنا له ليس إلا سببا وأن الهداية بيد الله، وأنها تجري على ما كتبه في اللوح المحفوظ، والظاهر أن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر هذا لهم ليكفوا عن غيبة هذا الرجل، والله أعلم.

فائدتان:

١: قال ابن رجب في القاعدة السابعة عشرة من قواعده: **(رجلان أحدهما ارتاضت نفسه على الطاعة وانشرحت بها وتنعمت وبادرت إليها طواعية ومحبة، والآخر يجاهد نفسه على تلك الطاعات ويكرهها عليها، أيهما أفضل؟**

قال الخلال: كتب إلي يوسف بن عبد الله الإسكافي حدثنا الحسن بن علي بن الحسن أنه سأل أبا عبد الله عن الرجل يشرع له وجه بر فيحمل نفسه على الكراهة، وآخر يشرع له فيسر بذلك، فأيهما أفضل؟ قال: ألم تسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول :«من تعلم القرآن وهو كبير يشق عليه فله أجران»؟

وهذا ظاهر في ترجيح المكره نفسه لأن له عملين: جهادا وطاعة أخرى، ولذلك كان له أجران، وهذا قول ابن عطاء وطائفة من الصوفية من أصحاب أبي سليمان الداراني،

وعند الجنيد وجماعة من عباد البصرة أن الباذل لذلك طوعا ومحبة أفضل، وهو اختيار الشيخ تقي الدين لأن مقامه في طمأنينة النفس أفضل من أعمال متعددة ولأنه من أرباب المنازل والمقامات والآخر من أرباب السلوك والبدايات، فمثلهما كمثل رجل مقيم بمكة يشتغل بالطواف والآخر يقطع المفاوز والقفار في السير إلى مكة، فعمله أشق والأول أفضل والله أعلم) انتهى،

وقد علق ابن عثيمين تعليقا جاء في ترجيح قول شيخ الإسلام لحديث **(وجعلت قرة عيني في الصلاة)**، ثم قال: **(والمجاهد قد يصل إلى المرتبة الأولى وترتاض نفسه على الطاعة ويطمئن إليها وينشرح لها صدره، وقد لا يصل، قد يبقى دائما في جهاد.)** انتهى.

٢: قيل قديما: **(ما عاتب المرء الكريم كنفسه * والمرء يصلحه الجليس الصالح)** ويقال: **"العاقل طبيب نفسه"،**

ويشهد لهذا المعنى ما في ترجمة شريك من التهذيب:

مر شريك القاضي بالمستنير بن عمرو النخعي فجلس إليه، فقال: يا أبا عبد الله من أدبك؟ قال: أدبتني نفسي والله، ولدت بخراسان ببخارى فحملني ابن عم لنا حتى طرحني عند بني عم لي بنهر صرصر، فكنت أجلس إلى معلم لهم فعلق بقلبي تعلم القرآن، فجئت إلى شيخهم، فقلت: يا عماه الذي كنت تجري علي ها هنا أجره علي بالكوفة أعرف بها السنة وقومي، ففعل. قال: فكنت بالكوفة اضرب اللبن وأبيعه، وأشتري دفاتر وطروسا، فأكتب فيها العلم والحديث، ثم طلبت الفقه، فبلغت ما ترى، فقال المستنير بن عمرو لولده: سمعتم من قول ابن عمكم، وقد أكثرت عليكم في الأدب فلا أراكم تفلحون فيه، فليؤدب كل رجل منكم نفسه، فمن أحسن فلها ومن أساء فعليها.

وقال الشاه ولي الله الدهلوي في حجة الله البالغة: **(فالناظر في مباحث الإحسان يحتاج إلى شيئين:**

١: النظر إلى الأعمال من حيث إيصالها إلى هيئات نفسانية، لأن العمل ربما يؤدى على وجه الرياء أو السمعة والعادة، أو يقارنه العجب والمن والأذى، فلا يكون موصلا إلى ما أريد منه، وربما يؤدى على وجه لا تتنبه هذه النفس لإرواحه تنبها يليق بالمحسنين -وإن كان من النفوس من يتنبه بمثله- كالمكتفي بأصل الفرض لا يزيد عليه كما ولا كيفا وهو ليس بزكي،

٢: والنظر في تلك الهيئات النفسانية ليعرفها حق معرفتها، فيباشر الأعمال على بصيرة مما أريد منها، فيكون طبيب نفسه، يسوس نفسه كما يسوس الطبيب الطبيعة، فإن من لا يعرف المقصود من الآلات كاد إذا استعملها أن يخبط خبط عشواء، أو يكون كحاطب ليل.) اهـ

وقال ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين: **(فالواجب على الإنسان أن يكون طبيب نفسه في كونه يغلب الخوف أو الرجاء، إن رأى نفسه تميل إلى الرجاء وإلى التهاون بالواجبات وإلى انتهاك المحرمات استناداً إلى مغفرة الله ورحمته فليعدل عن هذا الطريق، وإن رأى أن عنده وسواساً وأن الله لا يقبل منه فإنه يعدل عن هذا الطريق.)** اهـ

وفي فتاوى أركان الإسلام: (**والإنسان في الحقيقة طبيب نفسه إذا كان قلبه حيا، أما صاحب القلب الميت الذي لا يعالج قلبه ولا ينظر أحوال قلبه فهذا لا يهمه الأمر.**) اهـ

وقال في الشرح الممتع عن يوم عرفة: (**وإذا لحق الإنسان ملل فلا حرج أن يستريح، إما بنوم أو بقراءة قرآن أو بمذاكرة مع إخوانه أو بمدارسة القرآن أو في أحاديث تتعلق بالرحمة والرجاء والبعث والنشور وأحوال الآخرة حتى يلين ويرق قلبه، والإنسان طبيب نفسه في هذا المكان، لكن ينبغي أن يغتنم آخر النهار بالدعاء، ويتفرغ له تفرغا كاملا.**) اهـ

وفي لقاء الباب المفتوح: (**إذا رأى الإنسان من مخالطة الناس أنهم يمتهنونه ولا يهابون قوله ولا توجيهه فليختصر، لأن بعض الناس إذا خالط الناس وصار يضحك معهم ويمزح معهم ويجعل نفسه كواحد منهم لا يهابوه ولا يأخذون بقوله، لكن قد يكون مع أناس ينزل إلى هذه المرتبة لأنه يُعرف قدرُه في نفوسهم حتى لو خالطهم هذا الاختلاط، ومع الآخرين لا يمكن أن يخالطهم هذا الاختلاط، والإنسان طبيب نفسه**) اهـ وقال نحو هذا في التفضيل بين طلب العلم والجهاد، وفي مسألة التغيب عن بعض مواد الجامعة للدراسة لغيرها، وعن مسألة السفر بعيدا عن الأهل والزوجة إذا لم تطالبه الزوجة بالرجوع.

[الداعي قد لا يُبارَك له في دعوته إلا إن حَمِدَ الله بعد ظنه أن دعوته لم تؤت ثمارها]

وقال تعالى: (حَتّى يَقولَ الرَّسولُ وَالَّذينَ آمَنوا مَعَهُ مَتى نَصرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصرَ اللَّهِ قَريبٌ) [البقرة: ٢١٤]، وقال: (حَتّى إِذَا استَيأَسَ الرُّسُلُ وَظَنّوا أَنَّهُم قَد كُذِبوا جاءَهُم نَصرُنا) [يوسف: ١١٠]، ولما اشتدت كربة أم المؤمنين رضي الله عنها نزلت براءتها، ولما اشتدت كربة الثلاثة الذين خُلفوا نزلت توبتهم، رضي الله عنهم، وهذا من معاني حديث: «واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب».

روى [البخاري] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصُدق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية؟ لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله**»؛ ففيه: أن المرء يبذل أسباب الخير، فإن آتت

ثمارها التي يريد حمد الله، وإن لم تؤت ثمارها التي يريد فليحذر من التسخط أشد الحذر، بل عليه حمد الله تعالى، فإن تكرر فعله أسباب الخير وتكرر عدم إيتائها ثمارها التي يرجو فليكن أشد حذراً من التسخط، بل عليه تكرار الحمد، وهذا الذي في الحديث تكررت صدقته وتكرر وقوعها في يد غير أهلها، فلما كرر الحمد لله جاءته البشرى، فربما تأتي الداعي البشرى في وقت لا يظن أنها تأتي فيه، وفي قصة يونس عليه الصلاة والسلام عبرة، وقد جاء الولد لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ولزكريا عليه الصلاة والسلام في وقت لا يأتي فيه عادة، فالله جل وعلا قادر، ولكن يبتليك لتصبر.

وقد قال شيخ الإسلام في سبب انصراف قازان وجنوده: **(وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب: يومَ الإثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دَخَلْتُ مِصْرَ عُقَيب العسكر واجتَمَعْتُ بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه.**

فلما ثَبَّتَ الله قلوب المسلمين؛ صَرَفَ العدوَّ جزاءً منه وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل، وإن تباعدت الديار.) [انتهى من الفتاوى ٢٨\٤٦٣]

وقال ابن عثيمين رحمه الله في شرح الحديث الثامن من الأربعين النووية:

(فلا تحزن أيها الداعي إلى الله إذا رُدَّ قولك، أو إذا لم يُقبل لأول مرة؛ لأنك أديت ما يجب عليك، ولكن اعلم أنك إذا قلت حقاً تريد به وجه الله فلابد أن يُؤثر، حتى لو رُدَّ أمامك فلا بد أن يُؤثر، وفي قصة موسى عليه السلام عبرة للدعاة إلى الله، وذلك أنه جُمع له السحرة من كل وجه في مصر، واجتمعوا، وألقوا حبالهم وعصيهم حتى كانت الأرض تمشي ثعابين، حتى إن موسى عليه السلام خاف (فَأَوجَسَ في نَفسِهِ خيفَةً موسى) [طه: ٦٧]،

فلما اجتمعوا كلهم قال لهم: (وَيلَكُم لا تَفتَروا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسحِتَكُم بِعَذابٍ وَقَد خابَ مَنِ افتَرى) [طه: ٦١]

كلمات يسيرة، قال الله عز وجل: (فَتَنازَعوا أَمرَهُم بَينَهُم وَأَسَرُّوا النَّجوى) [طه: ٦٢]،

يعني أنهم تنازعوا فوراً، والفاء في قوله: (فَتَنازَعوا) [طه: ٦٢] **للسببية والترتيب والتعقيب، فتأمل كيف أثرت هذه الكلمات من موسى عليه الصلاة والسلام بهؤلاء السحرة، فلابد لكلمة الحق أن تؤثر، لكن قد تؤثر فورا وقد تتأخر والله الموفق.)** [شرح الأربعين النووية ص١٣١]

وقد قال الوركاني: أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس.

فتأمل كيف بورك له في يوم موته هذه البركة!

ولعل سبب هذه البركة ما قال ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد:(وكان ينهى الناس عن كتابة كلامه، فنظر الله تعالى إلى حسن قصده، فنقلت ألفاظه وحفظت، فقل أن تقع مسألة إلا وله فيها نص من الفروع والأصول، وربما عدمت في تلك المسألة نصوص الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا.) انتهى.

وقد قال ابن بدران في مدخله كلاما هو كالشرح لكلام ابن الجوزي هذا، فقال:(سبرت المذاهب المتبوعة الآن، وكثيرا من غير المتبوعة، فوجدت كلا منهم -قدس الله أسرارهم وجعل في عليين منازلهم- قد اجتهد في طلب الحق ولم يأل جهدا في طلبه ولا قصر في اجتهاده، بل قام بما عهد إليه حق القيام ونصح الأمة واجتنب كل ما يشين، غير أن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه كان أوسعهم معرفة بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم -كما يعلم من اطلع على مسنده المشهور- وأكثرهم تتبعا لمذاهب الصحابة والتابعين، فلذلك كان مذهبه مؤيدا بالأدلة السمعية حتى كأنه ظهر في القرن الأول لشدة اتباعه للقرآن والسنة! إلا أنه كان رحمه الله تعالى لشدة ورعه ينهى عن كتابة كلامه ليبقي باب الاجتهاد لمن هو أهل له مفتوحا، وليعلم القوم أن فضل الله لا ينقطع وأن خزائنه لم تنفد، على عكس ما يدعيه القاصرون وينتحله المبطلون، ولحسن نيته قيض الله من دون فتاواه وجمعها ورتبها، حتى صار له مذهب مستقل معدود بين الأئمة الذين دونوا وألفوا ثم هيأ الله له أتباعا وأصحابا..) اهـ مع التنبيه على أن قوله: "قدس الله أسرارهم" من ألفاظ أهل التصوف المرذول، ومعناه سيء، والله المستعان.

وهذا مثال طيب من أمثلة من بورك له في دعوته، يتبين به أن البركة في العلم إنما هي عطية من الله: قال ابن المني -بتشديد النون المكسورة كما في توضيح المشتبه- نصر بن فتيان الحنبلي رحمه الله كما في ترجمته من ذيل الطبقات:**(ما أذكر أحدا قرأ علي القرآن إلا حفظه، ولا سمع درسي الفقه إلا انتفع، ثم قال: هذا حظي من الدنيا)**

وقد قال عنه ابن قدامة:**(شيخنا أبو الفتح كان رجلا صالحا، حسن النية والتعليم، وكانت له بركة في التعليم، قل من قرأ عليه إلا انتفع، وخرج من أصحابه فقهاء كثيرون منهم من ساد... وكان يحبنا ويجبر قلوبنا، ويظهر منه البشر إذا سمع كلامنا في المسائل.)**

ومن بركة علمه أن الحنابلة بعده إنما يرجعون إلى علمه، جاء في ترجمته قول جمال الدين ابن الجوزي:**(وفقهاء الحنابلة اليوم في سائر البلاد يرجعون إليه، وإلى أصحابه.**

قلت -لا أدري هل القائل هو ناصح الإسلام ابن الحنبلي أم هو ابن رجب-: وإلى يومنا هذا الأمر على ذلك، فإن أهل زماننا إنما يرجعون في الفقه من جهة الشيخ والكتب إلى الشيخين: موفق الدين المقدسي، ومجد الدين ابن تيمية الحراني.

فأما الشيخ موفق الدين فهو تلميذ ابن المني، وعنه أخذ الفقه.

وأما ابن تيمية فهو تلميذ تلميذه أبي بكر محمد بن الحلاوي) وفي أول ترجمته من الذيل:**(وشدت إليه الرحال في طلب الفقه، وتخرج به أئمة كثيرون)** وفي ترجمته:**(ومال الفقهاء من أصحاب شيخه إلى الاشتغال عليه.)**

ولعل من أسباب هذه البركة ما قاله عن نفسه:**(حصل لي من ميراث والدي عشرون دينارا، فاشتريت بها شيئا وبعته فأربحت، فخفت أن تحلو لي التجارة فأشتغل بها، فنويت الحج فحججت، وتجردت للعلم..)**

تنبيه: المدعو فيما سبق قد يكون هو نفس الإنسان الداعي، إذ أول مدعوٍّ للمرء هو نفسه التي بين جنبيه،

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح**

فإن قيل: ما الجمع بين ما مر: «**سينهاه ما يقول**»، وبين ما رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه: **(قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتَصَدق، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا خير فيها، هي من أهل النار»، قال: وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأثوار من الأقط ولا تؤذي أحدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هي من أهل الجنة»)** [انظر الصحيحة ١٩٠]؟

فالجواب:

أن السائل عن الرجل كان واضحاً من سياق كلامه أنه يذمه أو أنه متوقف في أمره لا يدري ما حاله، ولا يُفهَم من سؤاله أبداً أنه يمدحه أو يميل إلى مدحه، وأما السائل عن المرأة فواضح من سياق كلامه أنه كان يمدحها إلا أن فيها عيباً واحداً، فذكره إيذاءها لجيرانها في سؤاله إنما هو من باب: **(من ذا الذي تُرضى سجاياه كلها)**، فلما اختلف حال السؤالين اختلف الجوابان، أما السؤال الأول فلا داعي فيه لتغليظ أمر السرقة لأن السائل مُدركٌ له كما هو واضح من سؤاله، وكما هو الغالب، إذ لا يكاد أحد يجهل خطر السرقة، وأما السؤال الثاني فناسب فيه تغليظُ شأن إيذاء الجيران، لأن السائل لم يقدره قدره -كما هو واضح من سؤاله-، ويحتمل أن صلاة الرجل كانت بخشوع وحضور قلب وانكسار، بخلاف المرأة، فلذا أدت صلاةُ الرجل به إلى ترك المنكر ولم تؤد صلاة المرأة بها إلى ترك المنكر، ويحتمل أن الله أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على عاقبةِ كِلا الشخصين، والله أعلم.